البابُ الثّاني

سياسةُ السّلطان عبد الحميد الثاني الداخلية والخارجية

الفصلُ الأوّل
سياسةُ السّلطان عبد الحميد الثاني الداخلية
(المشكلاتُ الدّاخلية وطريقةُ حلها)

١ - ضعفُ النظام التربوي، وخموله:

كان نظامُ التعليم والتربية قبل عهدِ السّلطان عبد الحميد قد أصابه الخمول والتوقّف عن مسايرة إنجازات العصر. هكذا وجده السّلطان؛ فأعطى عنايةً لإصلاح التعليم، وتطوير ما يحتاج إلى تطوير، وإحداث الجديد اللازم، وإبقاء القديم الصالح منه على ما هو.

طوّر السّلطان عبد الحميد المدرسةَ المُلكية الشاهانية (مدرسة العلوم السياسية)، فارتفع طلابُها إلى اثني عشر ضعفًا. ولم يكن هناك اهتمامٌ بالعلوم الاقتصادية والتجارية؛ فأسس السّلطان المدرسة التجارية الحميدية (أكاديمية العلوم الاقتصادية والتجارية) عام ١٨٨٣م، بهدف إعداد عثمانيّين متخصّصين في الاقتصاد والتجارة. وأنشأ مدرسة الفنون النفيسة العالية (أكاديمية الفنون). كما طوّر المدرسة الحربية (الكلية الحربية) بشكلٍ يجعلها تضمّ في داخلها: مدرسة القوات البرية، ومدرسة القوات البحرية، ومدرسة المهندسين، ومدرسة الطب، وكلّها مدارس عالية. وبذلك ارتفع عددُ مؤسسات التعليم العالية إلى ١٨مؤسسة.

كما افتتح أيضًا مدارس للمالية، والجمارك، والشرطة. وزاد عددُ مدارس المعلّمين، والمدارس الابتدائية، والمتوسطة، والثانوية، وما في مستواها. وأمرَ بتطوير المناهج الدراسية بحيث تساير ركبَ التطور العالمي. كما سمح بدخول الكتب والمجلات والصحف، وكلّ وسائل النشر، المتعلّقة بالعلم والتقنية والفنون[1].

٢- تمرّدُ الأرمن:

وقع الأرْمن- وهُم قطاعٌ من الشعب العثماني- تحتَ تأثير هيئات التنصير الكاثوليكية الأوروبية، وتحت تأثير هيئات التنصير الأمريكية البروتستانتيّة. ومن هذا المنطلق، تحركت ميولهم العرقية القومية والدينية. وقد طلب الأرْمنُ أن يمثلهم مندوب أرمني في مؤتمر برلين، وطلبوا الاعتراف لهم بحقوقٍ مثل المعترف بها للبنانيّين النصارى، وبتعيين والٍ عامّ نصراني في الولايات الشرقية من الدولة، وبهذه الصورة يتمّ ضمانُ حقوقهم وأمنهم ضدّ القوقازيين، وضدّ الأكراد، الذين يعيشون معهم في منطقة واحدة كما يدّعون.

وتدخّلت الدولُ الغربية في المسألة الأرمنية عام ١٨٨٠م، فاعتبر السّلطان عبد الحميد هذا تدخّلًا في الشئون الداخلية لبلاده. واكتفى بإرسال قائمقام نصراني تابع له إلى المنطقة الأرمنية، وبذلك رفضَ الطلب الدولي بتعيين والٍ نصراني.

---

(١) صايار ص ٢٣.

وبواسطة المنظمات السريّة القومية والإرهابية التي أسّسها الأرمنُ قام هؤلاء بالتمرّد والهجوم على المدن، مثل «أرضروم» و«وان».

وأسّس الأرمنُ عام ١٨٨١ منظمة في «أرضروم» أطلقوا عليها اسم «جمعية المحافظة على أرض الآباء».

وفي عام١٨٨٢ م، تدخّلت الدول الأوروبية لمناقشة المشكلة الأرمنية؛ إلّا أنّ امتناع بسمارك عن الانضمام إليها أفشلَ هذه المحاولة.

وفي نفس العام (١٨٨٢م)، أسّس الأرمن حزبًا ثوريًّا في جنيف. وكان اسمُ هذا الحزب خانجاك (يعني: الصليب)، وكان هدف هذا الحزب إقامةَ مجتمع أرمني اشتراكي في الأراضي التي سيتمّ الاستيلاء الأرمني عليها عن طريق الثورة.

وفي عام ١٨٨٥م، أسّس الأرمنُ منظمةً سياسية أطلقوا عليها اسْم «الماناكان» للعمل خارجَ حدود الدولة العثمانية، وكان شعارُها «الحرية أو الموت» وتمكّنوا من إقامة منظمة في لندن أطلقوا عليها اسْم «جمعية الأرمن محبّي أوروبا»، وكان هدف هذه الجمعية الحصولَ على دولة أرمنية تقتطع من أراضي الدولة العثمانية بطريق الثورة.

وفي عام ١٨٩٣م، طغى الأرمنُ كثيرًا فتمرّدوا، وكتبوا الشعارات على الجدران فيها إساءةٌ إلى المسلمين في وسط وغرب الأناضولى. وقام الأرمن في هاتين المنطقتين بتحريض المسلمين الأتراك على الثورة ضدّ السّلطان عبد الحميد. ولما رفضَ المسلمون ذلك، قام الأرمن بمذابح ضدّهم.

اضطر السّلطان عبد الحميد أنْ يصدر أمرًا بإيقاف إرهاب الأرمن، ومحاكمة الإرهابيّين. وعهد في تنفيذ هذا الأمر إلى قواتٍ مكوّنة من فرسان الفرقة الحميدية ومِن الأكراد. وقمعت هذه القوات فتنةَ الأرمن، وساد الأمنُ بعدها.

واحتجّت أوروبا على حقّ الدولة العثمانية في هذا الصدد، وقام «جلادستون» رئيس الوزراء الإنكليزي المعروف بعدائه للإسلام، يلقي خطبةً في «ليفربول» في بريطانيا نقدَ فيها سياسة السّلطان عبد الحميد تجاه الأرمن، وقال: «إنّ الدولة العثمانية ينبغي أن تُمْحى من الوجود». ووصفَ في خطبته هذه، السّلطان عبد الحميد بأنّه «القاتل الكبير». وشاع لقبُ «السّلطان الأحمر» الذي وصف به الأوروبيّون السّلطان عبد الحميد. ووقفت كلّ دول أوربا- باستثناء ألمانيا- في صفّ الأرمن[1].

٣- ضعفُ الاقتصاد العثماني:

كان تمردُ نصارى كريت في سبيل انفصال الجزيرة الكريتية عن الدولة العثمانية، وانضمام اليونانيّين للكريتيّين؛ يتطلّب إرسال قوات عثمانية- مع كلّ تمرّد- إلى الجزيرة، واستنزف هذا الدولةَ العثمانية في المال والجنود.

وكذلك كانت الحرب العثمانية اليونانية عام ١٨٩٧، ومن قبْلُ كانت الحرب العثمانية الروسية.

---

(١) صايار ٢٣٤.

ولم يكنِ الوضعُ الداخلي عند تولّي السّلطان الحكم سيئًا للغاية. كان العجز في ميزانية ١٨٧٥م مقداره خمسة ملايين ليرة عثمانية ونيّف. وقامت الدولة في مواجهة هذا بعمل ترتيبات، وتشكيل مؤسسات، ولجان، لمواجهة هذا الوضع، من ذلك إصدار تحويلات وأسهم مالية باسْم «تحويلات رمضان» وتأسيس إدارة «الرسوم السنيّة»، وإصلاح مالي باسْم «قرار محرم» لكنّ أشهر وسائل الإصلاح المالي كانت "إدارة الديون العمومية»[١].

و«إدارة الديون العمومي» اسمُ مؤسسة أنشئت لأداء الديون الخارجية التي اقترضتها الدولة في العهد السابق مباشرة على السّلطان عبد الحميد، ووصلت ديون الدولة في آخر أيام السّلطان عبد العزيز إلى ٥٢٩٧٦٧٦٥٠٠ فرنكًا ذهبيًّا.

ومع «قرار محرم» تشكّلت هذه الإدارة «إدارة الديون العمومية» وضمّت ممثلين للدول الدائنة. وكانت مهمة هذه الإدارة جمعَ دخول ضرائب مختلفة لتأخذ ديونها منها[٢].

وقبل هذا، كان قرار السّلطان بمنع مظاهر الإسراف في الدولة عمومًا، وفي القصر الحاكم خصوصًا. وبذل السّلطان من ماليّته الخاصة

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٢٥٢ .

(٢) هناك عرضٌ سهل الفهم لهذا الموضوع في دائرة المعارف التركية الميسرة، استانبول ١٩٦٨ ص ٣٣٠/ ١.

لسدّ بعض أبواب ماليّة حتى لا تكون هذه عبئًا على الميزانية العامة للدولة، كما سبقَ ذكره".

٤- تفشّي الفكر القومي في كبار المسئولين والأدباء والإعلاميّين:

أثّرت الثورة الفرنسية في أوروبا- عن طريق البعثات والترجمة- في الدولة العثمانية، وهي دولة إسلامية معارضة للفكرة القومية، وقامت في سبيل نشرها في البلاد منظماتٌ سريّة وخلايا في المدارس العالية؛ من مدنية وعسكرية. وصدرت من أجل تعميمها- أي الفكرة القومية- صحف معارضة للحكومة العثمانية في الخارج. ونشأ من هذا النشاط جمعية «العثمانيّين الجدد» ثمّ جمعية «الاتحاد والترقي».

مع الجمعية المعارضة الأولى «العثمانيّين الجدد» رضخ السّلطان عبد الحميد واستجاب لمطالبهم، وأعلن الدستور وافتتح المجلسَ النيابي. ثمّ وجد أنّ مِن السياسة أن يقوّض جماعتهم؛ فنفى رئيسهم، واستمالَ البعض بالمناصب، وعفا عن البعض، وبذلك شتّت شملهم. لكنه كان مضطرًّا اضطرارًا للتدخّل في كلّ صغيرة وكبيرة في أمور البلاد؛ لأنه لم يجدِ الرجال المخلصين الذين يعتمدُ عليهم لتنفيذ سياسته، فنشطت المعارضة، وتكوّنت جمعية «الاتحاد والترقي»، ولما استشْرت هذه الجمعية، وتغلغلت في مؤسسات الدولة كافّة؛ قام السّلطان عبد الحميد بتتبّع الفكر القومي، ومطاردة أصحابه، ورصدِ حركاتهم،

والرقابة على الصحف؛ حتى لا يؤدّي هذا الفكر- كما يرى السّلطان- إلى هدم الدولة. لذلك نجدُه يقف أمام الحركات القومية بحزم: الحركة القومية الأرمنية، والحركة القومية العربية، والحركة القومية الكردية، رغم أنه كان يتّخذ من الأرمن الوزراء والمستشارين له والأطباء والمدرسين والسّفراء، ورغم أنه كان يشجّع التعامل باللغة العربية، ويتّخذ من العرب أعوانًا له ضدّ معارضيه. ومن أبرز شخصيات العهد الحميدي: أبو الهدى الصيادي ونجيب ملحمة وعابد باشا. وكان حرسُه الخاص من الأكراد. وكان السّلطان عبد الحميد يثقُ في الأكراد وإخلاصهم وأمانتهم وصلابتهم. ومِن هذا القبيل لم يكن السّلطان عبد الحميد يريدُ لحركة «أحمد عرابي باشا» في مصر أن تأخذَ الوجهة القوميّة العنصرية.

***

الغريبُ هنا أنّ الذين قادوا المعارضة وأسقطوا الحكم الحميدي، كانوا يقدّمون أسبابًا لذلك؛ أهمها كبتُه للشعور القومي واستبداده، فماذا فعلوا بعده!؟.

يقول المستشرقُ كارل بروكلمان:

«إنّ استيلاء رجال تركيا الفتاة على الحكم- وكانوا يريدون جمعَ شتات المواطنين في أنحاء الإمبراطورية العثمانية كلها حول مثلٍ أعلى

دستوري جديد عن طريق القضاء على التمييز العنصري، ومن ثمّ حاربوا الثقافة العربية بعنف- قوّى رغباتِ العرب في التحرّر وتقرير المصير. وكان طبيعيًّا أن يضطرّ أحرار العرب إلى تشكيل جمعيات سريّة على غرار ما فعل رجال تركيا الفتاة أنفسهم»[1].

***

(١) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي ط٨ بيروت ١٩٧٩، ص ٧٥٧.